محمّد نعمة فقيه

الكيان الصهيوني

وموقعه في منظومة النّهب الدّولي

قراءة مخالفة للشائع
حول جذور التّكوين والتوظيف
ومقولات اسرائيل الكبرى أو العُظمى

سلسلة منظومة النهب الدّولي ٣

دار الفقيه للنشر
بيروت

"إسرائيل القديمة": الأكذوبة كبنيان للمشروع

محمد نعمة فقيه

في سبيل استكمال خلق «الحلم» اليهودي بأرض الميعاد، واختلاق «الشعب اليهودي»، كان على الحركات الصهيونيّة، بفصائلها وتلاوينها المتباينة والمتعارضة، أن تتضافر جهودها لتخلق تاريخاً متخيّلاً لهذا الشعب وأرضاً عاش عليها. كما كان على القوى العظمى الاستعماريّة، بما فيها زعماء البيوتات المالية اليهوديّة القابضة على السياسات الاستعماريّة العليا وعلى وسائل الإعلام والدعاية كافة، دعمَ جهود تلك الحركات والترويج لها بمختلف الوسائل المتاحة.

وكان ذلك يتطلّب، بحكم الضرورة، شطب الحقائق الرّاسخة لتاريخ المنطقة، وتزوير ما أمكن تزويره، أو كما قال أستاذ العلوم الدينيّة البريطاني كيث وايتلام [1] «إسكات التاريخ الفلسطيني»، وإسقاط الحقائق التاريخيّة الثّابتة من البحث التاريخي، لتحلُّ محلها أوهام مبنيّة على ما تمَّ تدوينه في التوراة من أخبارٍ وسرديّات لا سند لها سوى تخيّلات كاتبيه في زمن السّبي البابلي وما بعده، حيث «يُنظر على نطاق واسع إلى الصيغة الأخيرة للتوراة على أنها نتاج المدة الفارسية، 539-333 قبل الميلاد، على الأرجح 450-350 قبل الميلاد.[2] »

فمع ظهور الأفكار الصهيونيّة، بدأت تظهر، منذ أواخر القرن التاسع عشر، أعمال البحث عمّا يدعم ادعاءات الصهاينة عن تاريخ مزعوم لهم في فلسطين، لتدعيم الأفكار الهلاميّة التي تداعب مخيّلات الذين يتعاملون مع التوراة بوصفها كتاباً تاريخياً مقدّساً، ومع كلّ ما ورد فيه من أخبار عن مواقع وأحداث تاريخية، بوصفها حقائق لا يرقى إليها الشك.

ولذلك سنرى أن الحركة الصهيونيّة قد اعتبرت أن «توفير المناخ الملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب عن الآثار بالغ الأهميّة، لا يقلّ أهميّة عن توفير المناخ السياسي والإداري والاقتصادي لإنشاء الوطن القومي اليهودي.[3] »

وهذا المناخ هو ما وفّره صك الانتداب على فلسطين عام 1922 والذي جاء في المادة الثانية منه: «تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية واقتصادية وإدارية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي»، وثم تأتي المادة 21 منه لتقول: «يترتّب على الدولة المُنتدَبة أن تؤمّن وضع وتنفيذ قانون خاص بالآثار القديمة على أساس القواعد المذكورة فيما يلي خلال الاثني عشر شهراً الأولى من هذا التاريخ ويكون

هذا القانون ضامناً لرعايا جميع الدول الداخلة في عصبة الأمم المساواة في المعاملة فيما يتعلّق بالحفريّات والتنقيبات الأثريّة.«

ثم توضح هذه المادة المقصود بـ«الآثار القديمة» فتقول إنّها «كل ما أنشأته أو أنتجته أيدي البشر قبل سنة 1700 ميلاديّة»، علماً أن زعيم المنظمة الصهيونية وممثلها في المؤتمر حاييم وايزمان هو الذي أصرّ على تضمين صك الانتداب هذا النّص، إيماناً منه بأن التركيز على الجانب التاريخي هو شرط أساسي لضمان نجاح المشروع الصهيوني، ولضمان «عودة اليهود إلى أرض أجدادهم»، فكثيراً ما كان وايزمان يردّد: «نحن لسنا بقادمين ولكننا عائدون.[4] «

ولذلك سنجد أيضاً أن أعمال الحفر والتنقيب الأثري في فلسطين ستنطلق مع سنوات الانتداب البريطاني الأولى وسيتولّى هذه الأعمال، بشكل رئيس، علماء آثار صهاينة. فكان من أوائل فرق الحفر والتنقيب الأثريّة الصهيونية في فلسطين بحثاً عمّا يؤكد أساطير التوراة، بعد الحرب العالمية الأولى، الفريق الذي قاده المؤرخ وعالم الآثار الصهيوني وليام أولبرايت [5] الذي كان قد بدأ أبحاثه منذ عام 1919 بوصفه أستاذاً في المدرسة الأميركيّة للبحوث الشرقية في القدس ثم مديراً لها، وليبدأ أعمال الحفر والتنقيب فور صدور قانون يجيز هذه الأعمال عن أول حاكم مدني لفلسطين تحت الانتداب البريطاني اليهودي، وهو الصهيوني هربرت صموئيل عام 1923.

وقد أشار أولبرايت في كتابه «آثار فلسطين» [6] إلى أن أعمال التنقيب تتطلّب «مصاريف كبيرة» وأن تمويل معظم هذه الأعمال كانت تتولّاه المعاهد والجمعيات الأثريّة وصندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين الذي كان له نصيب الأسد في كل العمل الأثري بفلسطين، وقد جمع كل أمواله من اشتراكات الأعضاء وأحياناً من هبات سخيّة قدّمها أثرياء «أظهروا كرماً كبيراً. ومن أهم هؤلاء جون روكفلر الأب، وجون روكفلر الابن، وجاكوب شيف، والسير تشارلز هارستون، والسير هنري ويلكون، والبارون إدموند دي روتشيلد» [7]. وهذه الأسماء التي يذكرها أولبرايت، هي في الوقت نفسه أسماء لأكبر مموّلي المنظمة الصهيونية والصندوق القومي اليهودي.

ثم يقول أولبرايت إنّه عام 1920، عندما أنشِئت «مصلحة للآثار الفلسطينية على نظام حديث، تحت رئاسة العالم الأثري المحنّك جون جارستانج من جامعة ليفربول، وفي ظل سياسة المصلحة الجديدة إزاء المنقبين الأجانب، ازدهرت البحوث الأثرية في فلسطين ازدهاراً لم يسبق له مثيل. وفي سنوات السلم الخمس عشرة 1921 – 1936، لم تمر سنة واحدة إلا وجرت فيها عدّة حفائر، وقد زاد عدد المشروعات في أثناء هذه المدة

زيادة مُطَّردة حتى بلغ ذروته في الثلاثينيات الأولى» [8]. ويقول إنه كان محظوظاً لعمله في فلسطين في أثناء هذه المدة حيث «قام خلالها بدورٍ فاعل في كل من مجالي التنقيب والدراسة. ولقد كانت هذه السنوات مثيرة حقاً، إذ تحقق فيها كل شهر تقدُّم ملحوظ نحو هدفنا البعيد لكتابة تاريخ فلسطين الكامل كما تحكيه آثارها « [9].

لا يحتاج بحثنا هذا الدخول في عرض ومناقشة المقولات الصهيونيّة حول ما تدّعيه من تاريخ لليهود في فلسطين. ففي هذا السياق أماط اللثام عن الحقائق المناقضة لنصوص التوراة علماء آثار إسرائيليون، وأعلنوا في نهاية القرن العشرين، وبعد عقودٍ من الحفر والتنقيب للعثور ولو على أثرٍ يهودي فيها، مهما قلّ شأنه، أن داوود لم يكن أكثر من ملك قرية أو عشيرة، وكان، في أحسن الأحوال، يتمكّن من فرض سيادته على قرى أو جماعات أخرى. وهو «لم يبنِ مدينته»، بل وجد مدينة قائمة هي مدينة «أور سالم»، أي مدينة سالم، التي بناها سالم اليبّوسي في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، أي قبل داوود بأكثر من 1500 سنة، وأن السّور الذي كان يحيط بالقدس، هو السور الذي بناه سالم اليبّوسي نفسه، وأن الذي كان يتمّ تدميره من قبل الغزاة هو هذا السور، وليس الهيكل المزعوم.

وأكّدت تلك الأبحاث الأثريّة بأن الآثار التي تمّ الكشف عنها طوال تلك العقود، إنّما هي آثار لقبائل وحضارات عربية مختلفة كالكنعانيين، ومنهم اليبّوسيون، والحثيون والقبائل اليمانيّة كالسّبئيين والأنباط، وغيرها من الحضارات التي سادت على المنطقة في فترات مختلفة كالبابليين والفرس والحثيين والمصريين والإغريق والرومان وصولاً إلى المدة الإسلامية. وليعلن هؤلاء الباحثون، واحدهم إثر الآخر، بأنّهم رغم الجهود التي بذلوها في الحفر والتنقيب، لم يجدوا أي أثر للهيكل المزعوم الذي قامت عليه مزاعم «إسرائيل القديمة» بالقوّة والاتساع والنفوذ التي جاء عليه ذكرها في التوراة.[10]

وإن كان هذا الزّعم التوراتي حول «مملكة داوود وسليمان» لم يصمد أمام البحث العلمي والأثري، مثله في ذلك مثل مزاعم «وحدة الشعب اليهودي» و«الحلم» اليهودي في أرض الميعاد، ونقاوة «الجنس اليهودي»، فإن هذه المزاعم كلها، ستلقى من يصرّ على ترويجها واستخدامها كأسس لبنيان يقوم عليه الكيان الصهيوني، ويبرّر زرع هذا الكيان في هذه النقطة الجغرافية الحسّاسة في نقطة اتصال وتواصل مجتمعات المنطقة، ويعمل على تأبيد تجزئتها ومنع استقرارها، وأيضاً تأبيد تخلّفها عبر نهب واستنزاف ثرواتها وإمكاناتها بالحروب المموّلة من الدول الاستعماريّة لإعادة إنتاج تبعيتها وتعميق هذه التبعية.

** هذا النص فصل من كتاب للكاتب بعنوان «الكيان الصهيوني وموقعه في منظومة النهب الدولي» (قراءة مخالفة للشائع حول جذور التكوين والتوظيف ومقولات إسرائيل الكبرى أو العظمى)، صدر حديثاً عن دار الفقيه للنشر في بيروت*

الهوامش:

[1]كيث وايتلام(Keith W. Whitelam) ، رئيس قسم العلوم الدينية وأستاذ مادة الدراسات الدينيّة في جامعة استيرلنج البريطانية. كتب سلسلة من المقالات عن اليهودي القديم والتاريخ الفلسطيني. تُرجم له إلى العربية كتاب «اختلاق إسرائيل القديمة: إسكات التاريخ الفلسطيني» ونُشرت ضمن سلسلة «عالم المعرفة» الصادرة عن المجلس الوطني للثقافة والفنون في الكويت تحت رقم 249 في أيلول/سبتمبر 1999.

[2] -Frei, Peter "Persian Imperial Authorization: A Summary", in: Watts James: "Persia and Torah: The Theory of Imperial Authorization of the Pentateuch". Atlanta, GA: SBL Press,2001, p. 6.

[3]سحر الهنيدي: مقدّمة كتاب كيث وايتلام المذكور، ص 13- 14

[4]سحر الهنيدي، المرجع المذكور، ص 14

[5]وليم فوكسويل أولبرايت (Wiliam Foxwell Albright) من عتاة المؤرخين والأثريين الصهاينة. ولد عام 1891 في أميركا الجنوبية وتعلّم في الولايات المتحدة الأميركية وحصل على درجة الدكتوراه عن جامعة جونس هوبكنز في بلتيمور عام 1916. عمل منذ بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين عضواً في هيئة المدرسة الأميركية للبحوث الشرقية في القدس ثم مديراً لها. وبقي حتى عام 1936 يعمل في مجال الحفر والتنقيب في فلسطين بحثاً عن آثارٍ لـ«مملكة يهود» حيث كان رئيساً لعدة فرق تنقيب ومستشاراً لبعثات أثريّة أخرى.

[6]كتاب «آثار فلسطين (The Archaeology of Palestine) «صدرت الطبعة الأولى منه عام 1949 عن دار بنكوين في لندن، وصدرت ترجمة عربية له عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة عام 1971. تولّى الترجمة الدكتور زكي إسكندر والدكتور محمد عبد القادر محمّد وراجعته الدكتورة سعاد محمد.

[7]أولبرايت: المرجع المذكور، ص 13-14

[8]المرجع نفسه، ص 39-40

[9]المرجع نفسه، ص 40

[10]للتوسُّع حول هذه المسألة من المفيد مراجعة:

-شلومو ساند: «اختراع أرض إسرائيل»، ترجمة أنطوان شلحت وأسعد زعبي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2014.

-كيث وايتلام: «اختلاق إسرائيل القديمة»، مرجع سبق ذكره.

-إسرائيل فينكلشتاين، ونيل إشر سيلبرمان: «التوراة اليهودية مكشوفة على حقيقتها: رؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأصول نصوصها المقدسة على ضوء اكتشاف علم الآثار». وهو مترجم عن الأصل الإنكليزي :The Bible Unearthed: Archaeology's New Vision of Ancient Israel and the Origin of Its Sacred Texts.صدرت الترجمة العربية عام 2007 عن دار صفحات للتوزيع والنشر، دمشق.